النحو الوظيفي وديداكتيك اللغة العربية

عبد الوهاب صديقي

تمهيد:

تحتل اللسانيات اليوم كحقل معرفي خصب مكانة مرموقة في مجال العلوم الإنسانية الرائدة، وذلك بالنظر إلى الأدوات والمفاهيم النظرية والإجرائية التي تقدمها للباحث، وبالنظر إلى ارتباطها باللغة التي يعبر بها الإنسان عن أغراضه، كانتماء اجتماعي لمنظومة ثقافية وقيمية، ولما كان الإنسان مرتبطا باللغة ارتباط الدال بمدلوله بمفهوم فرديناند دوسوسير كان لزاما أن يتم دراسة اللغة بمفاهيم اللسانيات، دراسة وتدريسا؛ دراسة تمكن الباحث من تجاوز المعارف حول اللغة التي تفتقد للدقة العلمية، وتدريسا بتركيز المدرس أثناء تعليمية اللغة على الأبعاد الوظيفية لها، وذاك ما بدا لنا يروم النحو الوظيفي الوصول إليه في دراسته للغات الطبيعية، واللغة العربية واحدة منها.

ونروم من هذا التمهيد طرح إشكالات لها علاقة بتدريس اللغة العربية من قبيل:

- علاقة النحو الوظيفي بديداكتيك اللغة العربية
- إمكانية استثمار منجز النحو الوظيفي في تدريس اللغة العربية
- إمكانية استثمار نحو الخطاب الوظيفي في تفسير

نروم من هذا التمهيد طرح إشكالات لها علاقة بتدريس اللغة العربية من قبيل:
- علاقة النحو الوظيفي بديداكتيك اللغة العربية
- إمكانية استثمار منجز النحو الوظيفي في تدريس اللغة العربية
- إمكانية استثمار نحو الخطاب الوظيفي في تفسير العوائق اللغوية التي تحول دون تمكن المتعلم من الملكات اللغوية

العوائق اللغوية التي تحول دون تمكن المتعلم من الملكات اللغوية

وسنتصدى في هذا البحث في جوانب إمكانية استثمار نتائج نظرية النحو الوظيفي La théorie de la grammaire fonctionnelle ،في ديداكتيك اللغة العربية، معرفين ببعض المفاهيم المهمة لمدرس اللغة العربية،أملا في تدريس جيد لمكونات وحدة اللغة، تدريس «وظيفي» بالمفهومين اللساني، والتربوي، بعيدا عن الشحن والتلقي السلبي،الذي يكرس الهدر والتسرب الدراسي،إن لم يفض للفوضى وسلوكات تربوية من قبيل الارتجال، دون تخطيط جذاذي محكم.

والمقصود بالتدريس الوظيفي اللساني، النظر للغة الطبيعية كأداة للتواصل والتخاطب بين المتخاطبين، أي استحضار الشروط الاستعمالية للكلام، بربط المقال بمقتضيات المقام، وهذا جوهر «الكفاية التداولية».

أما مقتضى التدريس الوظيفي التربوي، فأن يتم توظيف مكتسبات اللغة العربية كملكات لغوية تواصلية، ومعارف ومهارات،في حياة المتعلمين، بالتعبير بلغة عربية سليمة، محترمة لقواعد النحو، مستوفية لشروط الاتساق والانسجام المطلوبة في خطاب المتعلمين تبعا لمستواه الدراسي، وهذا جوهر بيداغوجيا الكفايات.

وبذلك يتفق التدريسين،في أهمية البعد الوظيفي في الاشتغال باللغة وعليها.

نقصد بالنظرية اللسانية الوظيفية، النظرية اللسانية التي نشأت من رحم أعمال الانجليزي فيرت، ولساني حلقة براغ، واللسانيات النسقية، وتطورت مع اللساني الهولندي سيمون Simon Dik ديك،خصوصا مؤلفه الأول 1978.

ديداكتيك اللغة العربية والنحو الوظيفي

في تعريف الديداكتيك :

يتوارد مفهوم الديداكتيك في الكتابات التربوية باعتباره ترجمة ل«didactique» باللغة الفرنسية، ويعني علم التدريس، وفن التدريس، وتطلق عليه المؤلفات العربية في حقل التربية مقابلات متعددة منها؛ تدريسية المادة، وديداكتيكا،و فن التدريس، ومنهجية التدريس، وعلم التدريس، والتعليمية...ويعد كومينوسComenius أول من استخدمها كمرادفة لفن التعليم منذ 1657م في كتابه «الديداكتيكا الكبرى» [1]

خلاصة القول؛الديداكتيك يعني التفكير في مختلف الاستراتيجيات الممكنة لتدريس مادة من المواد،من جانب محتواها،ومنهجها ومنطلقاتها المعرفية،ومن جانب المتعلم واستعداداته في وضعية التعلم، والمدرس وعدته وتكوينه،ويرتبط بالديداكتيك مفهوم «المثلث الديداكتيكي» Triangle didactique،

ويركز التحليل النسقي للديداكتيك على تحليل مختلف العلاقات التفاعلية بين مكونات الفعل الديداكتيكي وهي المدرس والمادة والمتعلم، و كأقطاب ثلاثة وهي:

- القطب البيداغوجي، ويربط علاقة المدرس بالمتعلم، و يوثقها مفهوم «التعاقد الديداكتيكي» le contrat didactique ،ويركز على الاتفاقات التي تحدد أدوار ومهام المدرس والمتعلم، والتي تجعل التواصل التربوي الصفي، يعرف سبيله للنجاح، فالحياة مبنية على التعاقد ورباط الميثاق، والحياة التربوية أولى بها، فغياب التعاقد الديداكتيكي، يفضي إلى الفوضى وغياب المردودية، وغياب جودة الفعل التربوي.

- القطب السيكولوجي، ويربط علاقة المتعلم بالمادة المتعلّمة، وتمثلاته les représentations حولها، واستعداده للتفاعل معها، من خلال استدماج المكتسبات القبلية، بغية بناء معرفة جديدة. وكلما تم استثمار تمثلات المتعلم في بناء معارف جديدة، كلما تفاعل وشارك في بناء تعلماته، والأمر ينعكس.

- ويرجع صياغة المعادلة الرياضية للتمثلات إلى الديداكتيكيين أندريه جيوردان Gordan. A وجيرار دونفنشي G. Devechi اللذين يعتقدان أن بناء المعرفة[2] رهين بما تراكم لدى المتعلم من تمثلات ومعارف ومكتسبات قبلية، لها علاقة بشبكات ذهنية ذات معنى.

وقد صاغا المعادلة الرياضية للتمثلات على الشكل الآتي:

Conception[3] = (pcors)

- القطب الابستمولوجي ويركز على العلاقة بين المدرس والمعرفة، أي الكشف عن الآليات التي يتم تفعيلها داخل «العلبة السوداء» -كما سماها أحد الباحثين-[4] المعرفية للمدرس، وحقول استمداده لها، وهذا جوهر بحث الدراسة، وتبرز مهارة المدرس في تجويد فعل النقل الديداكتيكي La transposition didactique[5] من خلال مجموعة العمليات الإستراتيجية التخطيطية التي يعتمدها المدرس لنقل المعارف من مستواها الأكاديمي العالم،إلى المستوى المبسط المتعلم،من خلال التفاعل الايجابي بينه وبين المتعلم في بناء المعرفة من خلال التوجيه الهادف، والتواصل الصفي البناء، بغية استثمار الموارد المدمجة، لتحقيق مرامي المنهاج المدرسي والتوجيهات التربوية، وتفعيل الأطر المرجعية للمادة قيد الدرس.

وتحكم الفعل الديداكتيكي من منظور نسقي معرفي سجلات، تهيكل وتدمج أفعال العملية التعليمية – التعلمية، وتمكننا من فهم تمفصلات الفعل التربوي،الذي تحدده اشتراطات يفرضها السياق المؤسساتي، المحيط بالمتعلم وانعكاسها على تمكنه من بناء المعارف، ومن هذه السجلات:

- السجل السيكولوجيle registre psychologie: ومدار حديثه فعل التعلم، والاستراتيجيات التي يفعلها المتعلم من أجل اكتساب المعارف، علاوة على مجموعة من الأبعاد النفسية، والعقلية –الذهنية، المتعلقة بتمثلاته ومكتسباته السابقة واستعداداته.

- السجل المؤسساتيle registre institutionnel : ومقتضاه محيط المؤسسة الذي يؤثر على فعل التعلم، كموقع المؤسسة التربوية، ووسطها (حضري، قروي)، والظروف الاجتماعية والاقتصادية للمتعلمين، هذا بالإضافة إلى السياسة التربوية،التي يحددها فلسفة المنهاج، والكتاب الأبيض، وغيرها من الأطر المرجعية كالمذكرات التربوية، والكتب المدرسية وغيرها التي تؤطر الفعل التربوي.

- السجل البيداغوجيle registre pédagogique : ويحلل فعل المدرس وأداءه داخل الوسط الصفي، وتحدد هذا الفعل محددات منها؛ التكوين الأكاديمي للمدرس، وتخطيطه للدرس، وتفاعله مع المتعلمين،والاستراتيجيات التي يعتمدها في إيصال المعارف.

- السجل الابستمولوجيle registre epistemologique : ومدار حديث فعل المعرفة-الذي ركز عليه أندري جيوردان A Gordan. في تحليله الديداكتيكي،في علاقاته بتمثلات les représentations ، المتعلم وتصوره للمادة، واستعداداته لاكتساب المعرفة نفسها،كمضامين وقيم وأنساق ثقافية.

خلاصة القول، إن الفعل الديداكتكي، مستويات وعلاقات وسجلات وأقطاب، يمكن تحليلها من فهم فعل نقل المعرفة للمتعلم،والأسس الابستمولوجية المعتمدة في ذلك،من خلال استحضار تمثلات المتعلم أولا، والاستراتيجيات التخطيطية للمدرس ثانيا، والسياق المحيط بالمؤسسة التربوية ثالثا، من أجل نجاح تمكن المتعلم من المعارف كقيم، وسلوكات وأنساق تسهم في التنمية والتقدم والازدهار.

ويمكن الاستعانة بالجدول الآتي لتوضيح تفاعلات مكونات الفعل الديداكتيكي كما يلي:

مستوى المتعلم	مستوى المدرس	مستوى المادة
- فهم ظروفه النفسية والاجتماعي، والعوائق التي تحول دون تمكنه من الملكات - تحفيزه وإثارة دافعيته وتشويقه إلى التعلمات - تنمية التعلم والتكوين الذاتي،وتحبيب القراءة والمطالعة الحرة لديه - فهم أمراض اللغة لدى المتعلم،باعتباره ابن جماعة لغوية تنتمي إلى جغرافيا تؤثر في اكتسابه للغة (سوسيولسانيات) علاوة أنه يمثل أبعاد نفسية لغوية (سيكولسانيات) بغية إيجاد الحلول الملائمة لهذه الأمراض وتجاوزها صعوباتها.	- تجديد المعارف والوعي بالمادة المدرسة - المواكبة لمستجدات الحقل التربوي (المنهاج،المذكرات التربوية،. وعلوم التربية وعلم النفس المعرفي والتشريع التربوي...الخ) - المواكبة لمستجدات حقل التخصص كالنقد واللسانيات والآداب - تجويد العدة الديداكتيكية، والرغبة في تجويد الممارسة التدريسية من جيد إلى أجود	- تعبئة الموارد المعرفية - تنقيح ونقد معارف الكتاب المدرسي - تجويد أساليب النقل الديداكتيكي - الوعي بإشكالات تدريس المادة من خلال استثمار التجربة التدريسية وتراكماتها. - المساهمة في تجويد تدريس المادة من خلال الانفتاح على الشركاء (جمعية أساتذة اللغة العربية نموذجا) - تحفيز المتعلم على المساهمة في تفعيل الأندية الموازية ذات الاهتمام بالتخصص كأندية (الإبداع، السرد،المسرح، الخط العربي...الخ

2 - 1 - دواعي الاهتمام بديداكتيك اللغة العربية:

اقتضى ظهور الميثاق الوطني للتربية والتكوين، 2000 تقديم تصور جديد للمدرسة المغربية تنتقل بواسطته، من مدرسة لتلقي المعارف، -اعتمادا على «مقاربة بالأهداف»، المقاربة التي تضمن سلطة المدرس، كمالك للمعرفة، ويعتبر المتعلم بناء على هذا «وعاء للشحن»- إلى مدرسة متعددة الأساليب، منفتحة على محيطها السوسيو اقتصادي، باعتبارها في» قلب المجتمع»، تساهم في إكساب المتعلم تقنيات ومهارات للتكوين الذاتي، وبناء التعلمات بعيدا عن الشحن السلبي، من خلال «مقاربة الكفايات» كإطار بيداغوجي جديد يعتمد خلق وضعيات -مشكلات تساعد المتعلم على حلها، استجابة لحاجات سوق الشغل.

وبناء على هذا، فقد تم تحيين مناهج والبرامج والمقررات الدراسية حتى تستجيب لهذه الغايات، وفي هذا الإطار تم اعادة النظر في «مناهج وبرامج اللغة العربية»، للتأسيس لتصور جديد لـ«ديداكتيك اللغة العربية» وذلك للدواعي الآتية منها[6]:

- الملاءمة الجيدة للمناهج والبرامج مع وضعيات التدريس الجديد

- التصريف الأمثل للإجراءات والتدابير المتخذة والمقترحة لتدريس المواد والتخطيط لإنجاح رهانات المناهج والبرامج الجديدة

- تحويل مركز الاهتمام من التعلم المتمركز حول المعرفة إلى التعلم المتمركز حول المتعلم انسجاما مع بيداغوجية الكفايات

- التحيين المتواصل لوسائل العمل الديداكتيكي الصفي وعدته وفق مستجدات التربية والتكوين

- النقل الديداكتيكي السليم للمعارف والقيم والمهارات والكفايات المستهدفة إلى محتويات وأنشطة مدرسة في وضعيات ديداكتيكية خاصة

لقد تبدى مما قيل، أن الاهتمام بديداكتيك اللغة العربية، أملاه الانسجام مع الوضعيات الجديدة التي يفرضها، تبني مقاربات بيداغوجية، تتمركز حول المتعلم وسبل تمكنه من المعارف والمهارات والمواقف، والملكات اللغوية والتواصلية، مما ينسجم مع الطرح « الوظيفي» الذي يرى في المعارف التي ينبغي أن يتمكن منها المتعلم هي التي يمكن توظيفها في حياته، والتي يمكن استثمارها في حل/والتعامل مع الوضعيات التي يُصادفها في محيطه السيوسيو اقتصادي، ويتطلبها سوق الشغل، على اعتبار أن المعارف ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود سبل التغلب على المشكلات التي تعترض المتعلم في بناء المعارف والتكوين الذاتي.

3-1 النحو الوظيفي وديداكتيك اللغة العربية:

تصدت الكتابات اللسانية الوظيفية لتقديم ديداكتيك النحو الوظيفي ،من خلال استرتيجيتين هما:

تقريب مفاهيم وإليات النحو الوظيفي،للأساتذة والمفتشين

تبسيط المقاربات الوظيفية لظواهر لغوية معينة كالعطف، والاستفهام والاستلزام الحواري

ويقترح (المتوكل 2006) لبلوغ تدريس للغات أمثل مايلي:

تتم عملية تعليم اللغات في مقابلة لغة المتعلم باللغة المراد تعلمها

تعليم لغة ما في التدريس، يستدعي فحص ظواهر عامة تجمع خصائص وظيفية دلالية وتداولية كظاهرة التبئير مثلا

تحسيس المتعلم بما يؤالف وبما يخالف بين لغته الأصلية واللغة التي يتعلمها، وهذا مضمون الكفاية النمطية Compétence typologique .

يستفاد إذن من الاستراتيجيات الديداكتيكية التي يقترحها النحو الوظيفي في تدريس اللغة العربية، أنها تتسم بالجدة وإمكانية أجرأتها، شريطة استيفاء شرطين هما: ضبط إواليات النحو الوظيفي؛ مفاهيم

وأدوات اشتغال،ثم التعامل الشمولي مع الظواهر الدلالية والتداولية التي يتم فحصها، وأهمية النحو الوظيفي تكمن في كونه يستدمج مجموعة من المفاهيم السابقة التي سبقت الإشارة إليها،فالسوسيولسانيات كمبحث يربط اكتساب اللغة بالشروط الاجتماعية المحيطة بالمتعلم، يمكن تعويض هذا المبحث ب»الكفاية التداولية» Compétence pragmatique، التي يروم النحو الوظيفي تفسيرها، ومفادها ربط اللغة بشروط الاستعمال، فمستعمل اللغة الطبيعية، يكتسب نسقين: نسق القواعد التركيبية للغة، ونسق الاستعمال؛ أي ربط المقال بالمقام،بل قد نذهب إلى القول أن اقتراح النحو الوظيفي القالب الاجتماعي ضمن نموذج مستعمل اللغة الطبيعية (المتوكل 2003)، ربط للخطاب بالشروط الاجتماعية التي ولدته.

وإذا كان مبحث السيكولسانيات، يربط إنتاج اللغة بنضج الجوانب الوجدانية والنفسية لشخصية الفرد،فإنه من منظور النحو الوظيفي يمكن تعويض هذا المبحث ب»الكفاية النفسية» Compétence psychologique ،التي ينصب اهتمامها على ربط اللغة بشروط إنتاجها، والشروط النفسية للمتكلم والمخاطَب ،والتي تعينه على الفهم والتأويل.

4-1 نحو الطبقات القالبي وديداكتيك اللغة العربية:

يقدم نحو الطبقات القالبي (المتوكل 2003) ،تفسيرات تعين مدرس اللغة العربية على فهم الاضطرابات اللغوية،وقد قدمت من وجهة نظر النحو الوظيفي دراسات لمعالجة وتفسير بعض أمراض اللغة لدى مستعمل اللغة الطبيعية والتي تظهر في انتاجاته اللغوية من قبيل؛ انعدام الوظائف التداولية (البؤرة والمحور)، أو انكسار وخلل في السلسلة المحورية للخطاب.

وسيمكن استثمار هذه الدراسات مدرس اللغة العربية، من تفسير أسباب قلق العبارة اللغوية في إنجازات المتعلمين، وغياب الانسجام والتناسق، وخلل في السلسلة المحورية من خلال الانتقال من موضوع إلى موضوع دون موجب لذلك، علاوة على تفسير ركاكة العبارة، وقد توصلت نتائج هذه الدراسات إلى تصنيف الاضطربات اللغوية تبعا للآتي:

وتروز نظرية النحو الوظيفي رصد مأربين هما:

وضع تعالقات بين صنف الاضطراب اللغوي وصنف الاضطراب النفسي والعقلي

نوع الخلل	نوع المستوى	نوع الطبقة
- خلل عقلي أو خلل نفسي	- خلل في المستوى التمثيلي أو في المستوى البلاغي أو في المستوى العلاقي	- خلل في طبقة الوظائف التداولية (انعدام البؤرة والمحور مثلا) - خلل في طبقة الوجه والانجاز

تمييز الاضطراب اللغوي عن الانزياح اللغوي الفني السليم

خلاصة القول أن نظرية النحو الوظيفي بهذا المعنى نسق متكامل يمكن استثماره من وضع خطة ديداكتيكية لتدريس اللغات عامة واللغة العربية خاصة،لأنها تستجمع نتائج المفاهيم السابقة،فهي نظرية تقدم نموذج ديداكتيك النحو الوظيفي في اللغة العربية، وهي نظرية تستحضر الشروط الاجتماعية والتداولية في اشتغالها على اللغة الطبيعية، وهي نظرية لتفسير الاضطرابات اللغوية وتفسيرها والمساهمة في معالجتها.مما يصح معها القول أن نتائجها صالحة أن تستثمر في تدريس وظيفي للغة العربية.

خاتمة:

نخلص من خلال ما طرح أن النحو الوظيفي، نظرية صالحة أن تعتبر إطارا نظريا وتطبيقيا، لوضع ديداكتيك النحو الوظيفي في اللغة العربية، بغية تبسيط الظواهر الوظيفية واستثمارها في بناء مقررات اللغة العربية في السلك الثانوي.

يقتضي تطوير التعلمات البحث عن مختلف الاستراتيجيات التي تحبب التعلم للمتعلمين، لاسيما ما تخوله اللسانيات عموما، والنحو الوظيفي خصوصا،علاوة على الانفتاح على الوسائط التكنولوجية، وما تخوله الثورة الرقمية،من أجل صناعة إنسان مجتمع المعرفة.

الهوامش

1 - محمد الدريج 2011 ص: 8

2 - A.Gordan et Gérard De Vecchi ;1987, Neuchâtel p :87

3 - Ibid. p .87

4 - عبد الله الخياري،2012 ،ص: 132

5 - M. Develay et Colla 1987،p. 61

6 - التكوين المستمر،ديداكتيك اللغة العربية2009، ص:7